

ظاهرة الوساطة في المجتمع المرابطي

"دور أبي عبد الله بن أبي الخصال أنموذجاً"

Mediation phenomenon in the Almoravid community

"the role of 'Abd allah ibn abī al-ḥaṣāl as a model"

طاهري أمحمد

جامعة البليدة 02، مخبر الدراسات المتوسطة عبر العصور (المدينة)

tahrimhamed1981pr@yahoo.com

تاريخ النشر: 2020/07/30

تاريخ القبول: 2020/06/23

تاريخ الإرسال: 2020/04/16

الملخص:

إنّ مسعى هذا المقال هو دراسة ظاهرة الوساطة في المجتمع المرابطي، من خلال التركيز على الرسائل التي بعثها أبو عبد الله بن أبي الخصال للسلطة الحاكمة، والتي كان الغرض منها التوسط لبعض فئات المجتمع المرابطي من العامة والخاصة تحقيقاً لمآربها، ونظراً لأهمية هذه الإشكالية فقد حاولنا تتبعها من خلال توضيح مفهوم الوساطة ودوافعها، وتبيان مكانة فئة الوزراء والكتاب، لنعرّج على ترجمة شخصية بن أبي الخصال، ونصل إلى تبيان دور بن أبي الخصال في التوسط لفئات المجتمع.

لنخلص في النهاية على التأكيد على أصالة الظاهرة وتجذرها في المجتمع، فما كانت رسائل الوساطة لابن أبي الخصال إلا دليل على اتساع الهوة بين الحاكم والمحكوم، ومدى التذمر التي تحمله الرعية من السلطة الحاكمة، ممّا جعلها تسعى للوزراء والكتاب لقضاء الأغراض وبلوغ المقاصد.

الكلمات المفتاحية: الوساطة؛ المجتمع؛ الدولة المرابطية؛ أبو عبد الله بن أبي الخصال.

Abstract:

The endeavor of this article is to study the phenomenon of mediation in the Almoravid community, by focusing on the messages sent by 'Abd allah ibn abī al-ḥaṣāl to the ruling authority, which were intended to mediate for some groups of the Almoravid society from the public and private. For the importance of this problem, we have tried to track it by clarifying the concept of mediation, and its motives, and by clarifying the social rank of the category of ministers and writers. Then we recite the biography of the personality of 'Abd allah ibn abī al-ḥaṣāl, and we show his role in mediating.

Finally, we can say that this phenomenon existed long time ago. These mediation messages of Ibn Abi Al-Khasal are clear evidences of the widening gap between the ruler and the ruled, and of the extent of complaint carried by the population about the authority, which made it seek the mediations of the ministers and writers to achieve their purposes and reach their goals.

Keywords: Mediation; Society; Almoravid State; 'Abd allah ibn abī al-ḥaṣāl.

1.مقدمة:

لا شك أنّ التمايز الطبقي والتفاوت الاجتماعي الذي عرفه المجتمع المرابطي، قد فرضته سياسة الدولة القائمة على تدعيم نفوذ الفقهاء، والتي منحت لهم صلاحيات وتفويضات واسعة، ممّا جعلها تنغمس في جمع الثروة

والبحث عن المناصب، إضافة إلى اعتمادها على قاعدة الجهاد الحربي، التي تتطلب تكاليفاً لا تفي غرضها إلا بكثرة الدخل.

هذه الأحوال الاجتماعية قد خلقت نوعاً من المنافسة الشديدة بين أهل الحل والعقد، في تساق غمار المناصب السياسية على حساب مصالح الرعية، وفتحت مجالاً واسعاً للعديد من فطاحل العلماء والأدباء في تبوء مراتب عليا في هرم السلطة، والتي نعتقد أن البعض منهم قد سدّد خطاه لخدمة الطبقات الاجتماعية المحرومة والتماس الرعاية لها.

ومن الأهمية بما كان، أن يكون لأبي عبد الله بن أبي الخصال الوزير والكاتب دوراً بارزاً في التوسط لهذه الفئات لدى السلطة الحاكمة، بحكم تدهور الوضع الاجتماعي وظفره بقلب ذي الوزارتين لدى السلطة المرباطية، ناهيك عن تدمير الرعية من عدم تحقيق مطالبها المختلفة، وانشغال الحكام بأمور بعيدة عنها، ممّا ينبي ببروز إرهابات زوال الدولة.

على ضوء ما تقدم، تبدلنا أهمية رسائل الوساطة التي بعثها ابن أبي الخصال إلى السلطة الحاكمة في إبراز الواقع الاجتماعي لدولة الملتزمين ومدى تحكمها في الطبقات الاجتماعية، وقدرتها على تحقيق مطالبها، والتي ما فتأت تعرف انحطاطاً كبيراً فرضته الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية التي عجلت بسقوطها.

وبذلك فإنّ هذا العمل، هو محاولة منا لإبراز دور أبو عبد الله بن أبي الخصال كوسيط ومصلح اجتماعي بين السلطة ومختلف الفئات الاجتماعية المتدمرة من العامة والخاصة، لذا كان الغرض من هذه الدراسة هو التأصيل لظاهرة الوساطة في المجتمع المرباطي، والتي نعتقد أنّها لم تنل حظّها من الدراسات التاريخية، انطلاقاً من الرسائل الديوانية والإخوانية لابن الخصال كنموذج قلّ نظيره، حيث حملت رسائله في مكنونها دلالات تاريخية هامة ذات طابع سياسي واجتماعي واقتصادي عن المجتمع المرباطي ما يحتاج للبحث والدراسة.

ولعلّ هذا الأمر هو ما يدفعنا إلى طرح إشكالية رئيسية نحاول الإجابة عنها: هل عرف المجتمع المرباطي ظاهرة الوساطة؟ وهل تحمل رسائل بن أبي الخصال دلالة على وجودها؟ هل كان لابن أبي الخصال دورٌ في الوساطة الاجتماعية بين السلطة الحاكمة والرعية؟ وما هي أهم الفئات الاجتماعية التي توسط لها؟

وللتفصيل في هذه الإشكالية كان لابد من تحديد مفهوم الوساطة وتبيان دوافعها؟ مع الوقوف على مكانة الوزراء والكتاب مقارنة بالفئات الاجتماعية المرباطية؟ لنركّز على شخصية أبو عبد الله بن أبي الخصال وإبراز دوره في التوسط لفئات المجتمع المرباطي من خلال عرض وتحليل رسائله الديوانية التي توسط بها لقضاء حوائج العامة والخاصة بالمغرب والأندلس؟.

2. ظاهرة الوساطة (المفهوم والدوافع):

جاء في معاجم اللغة أنّ لفظ الوساطة مشتق من الفعل وَسَطَ أو وَسُطَ، ومعناه التوسط لشخص في الحسب لقومه، ويقال فلانٌ وسيطٌ في قومه أي أنّه أوسطهم نسباً وأرفعهم مجداً¹، وبذلك تصبح الوساطة هي ذلك العمل الذي يقوم به المرء نيابةً عن قومه في اصلاح الأمور، وتقريب وجهات النظر بين المتخاصمين، لذا فقد شملت عدّة مجالات؛ فقد يكون المرء وسيطاً في تجارة أو صلح اجتماعي أو غير ذلك من أمور الدنيا؛ وبذلك فإنّ نوع الوساطة مرتبطٌ بطبيعة الحاجة الذي يريد الفرد قضائها، وهذا ما لمسناه من خلال رسائل بن أبي الخصال التي تنوعت مواضعها ومقاصدها.

والملاحظ أنّ مهمّة الوسيط هي عادةً ما تشبه السفارات التي يتولّاها ديوان الرسائل، الذي يشرف عليه مَهْرُ الكتاب ممّن يمتلك البلاغة الأدبية والحسن المرفه في التعامل مع الآخرين، لغرض توصيل الخبر بشكلٍ لائقٍ أو اقناع طرفٍ آخر لهدفٍ محدّدٍ، أو تقمص شخصية الوسيط في حلّ المشاكل المستعصية، لذا فقد كانت مهمّة الوسيط تخضع لشروط علمية موضوعية².

ومن هنا فإنّ هذه الظاهرة لم تكن مقتصرّةً على المراتبين فقط، بل وجدت حتّى في مراحل متقدّمة ومتأخّرة، ونذكر منها ما قام به الفقيه علي بن محمّد بن خليل الإشبيلي (ت 567هـ/1171م) زمن الموحّدين، الذي توسّط لطالب علم لدى حاكم سجلماسة لقضاء حاجة له، وتواصلت أيّام المرينيين عندما توسّط الشيخ أبي زكريا نيابةً عن سلطانه يوسف الأوّل سلطان بني الأحمر، لدى السلطان المريني أبي عنان، في رسالة له بتاريخ 752هـ/1351م، والتي احتوت على تركيّة لأحد الولاة جاء بها الكثير من المدح والتركية لسيرته الحميدة³.

وبذلك فإنّ دوافع الوساطة تختلف من عصرٍ إلى آخر، ومن شخصٍ لآخر، حسب الغرض الذي يريده الفرد من خلال الوسيط، حيث يورد بن أبي الخصال زمن المراتبين عدداً كبيراً من أفراد الرعية الذين توسّط لهم، والذين ينتمون إلى جميع أفراد الرعية سواءً من الطبقات العليا أو الدّنيا.

والظاهر أنّ السبب الرئيسي لهذه الظاهرة يرجع إلى ذلك التمايز الطبقي والتفاوت الاجتماعي في المجتمع المراتبي، حيث انقسم إلى عدّة طبقاتٍ متفاوتةٍ الحضور في الحصول على الثروة والأرض والوظيفة، ولعلّ هذه الفوارق تكون أكثر حضوراً بالمدن عكس البوادي، وهذا ماؤدّ شرحاً كبيراً بين الفقراء والأغنياء⁴، ويضيف أحدهم أنّ الدّولة المراتبية هي المتسبب الأكبر، نظراً لميلها للعنصر المراتبي على حساب الفئات الأخرى، وهذا أكّده بقوله: "إنّ الرئيس يستحي أن يحاسب في عمّله مراتبياً، أو يُنكر عليه شيئاً ممّا قد فشا له عنه، في الخطّة التي ولاه"⁵.

وبذلك فإنّ هذا التفاوت هو ما يزيد من حدّة التسابق في قضاء المصالح بين أفراد الرعية، ممّا يدفع الضعيف منهم لمناوئة بعض الأفراد ممّن يملكون نفوذاً لدى السلطة لقضاء حوائجهم، فكانت فئة الوزراء والكتّاب من أهم هذه الطبقات التي لعبت دور الوسيط في نقل انشغالات الرعية إلى السلطة، ناهيك ممّا كانت تعانيه هذه الأخيرة من ضعفٍ داخلي وخارجي يجعل قضاء المصالح صعباً.

ومن هنا فإنّ ظاهرة الوساطة تزيد وتيرتها زمن الضعف والوهن الذي يصيب الدّولة، عكس المراحل الأولى التي تميّز فيه بالقوة وبند الظلم، ولعلّ هذا الوضع هو ما شجع الدّعوة التومرتية إلى تبني سياسة الإصلاح الدّيني والسياسي، متّخذة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتقويض نفوذ المراتبين⁶.

3. مكانة الوزراء والكتّاب في المجتمع المراتبي:

تكاد تتفق معظم الدّراسات التاريخية على أنّ المجتمع المراتبي مجتمّعٌ تسوده الطبقية: نظراً لمجموعةٍ من العوامل المرتبطة بأصل نشأة الدّولة الذي اعتمدت على إقتصاد المغازي: ممّا يتطلب أموالاً ضخمةً لبناء الدّولة، ولعلّ هذا الأمر هو مادفع السلطة الحاكمة لزيادة وتيرة جمع الإيرادات من الرعية بصفةٍ مستمرة، ما جعلها رهينة الإستبداد من طرف الفئات العليا المكونة للطبقة الحاكمة، ناهيك عن تركّز الثروة من المال في يد فئة معينة شجعت الإقطاع الزراعي، ممّا ولد شرحاً واسعاً بين الفئات الاجتماعية، فكانت فئة الوزراء والكتّاب التي تندرج في عموم حاشية السلطة، من أهم الفئات المحبة لجمع المال والثروة واستغلال النفوذ عن طريق الوظيفة⁷.

الظاهر أنّ هذه الفئة قد كانت مرتكز الدّولة في عمليات تسيير الحكم: نظراً لشرف المهنة وأصالتها التي ترتبط بخطّة الكتابة والقلم، ممّا يؤدي إلى الإحتلاط المستمر بالسلطة الحاكمة، فكان الكتّاب من أهم الفئات المقرّبة للسلطة، حيث كان يُختار بناءً على مجموعةٍ من الشروط، تتّصل بأرفع طبقات المجتمع، ناهيك عن علمه ومرونته وحشمته والآداب والأخلاق الفاضلة وحسن مجالسة الحكام والملوك⁸.

وبذلك فقد حاز كتّاب الدّولة المراتبية على مكانةٍ هامةٍ لا تقل أهمية عن الوزراء والعلماء والفقهاء؛ لكون الكثير منهم قد جمع بين الكتابة والوزارة أيّام المراتبين، والتي لا تؤوّل لصاحبها إلّا إذا كان عالماً عارفاً متبحراً في الرسائل السلطانية والإخوانية، وعلى قدرٍ كبيرٍ من البلاغة والحجّة الكلامية، ومن هؤلاء الذين جمعوا بين الوزارتين نذكر: أبو العبّاس أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد (ت 426هـ/1034م)، وأبو القاسم محمّد بن عباد (ت 433هـ/1041م)⁹، وربّما كان أشهرهم أبو بكر محمّد بن سليمان المعروف بابن قصيرة (ت 508هـ/1114م)، الذي تولّى

الكتابة والوزارة زمن يوسف بن تاشفين (ت500هـ/1106م) الذي قرّبه منه وجعله على دواوينه ورفع من شأنه حتى أنساه زمانه.¹⁰

حيث تميّزت هذه الفئة بثراء كبيرٍ نظرًا لكثرتهم زمن علي بن يوسف المرباطي (ت537هـ/1142م)، الذي استكثر منهم ببلاطه خاصّة بالعاصمة مراكش التي شُبهت أيامها ببغداد العراق¹¹، وبذلك فقد استطاع هؤلاء جمع ثروة كبيرة من المال وعدد من الإقطاعات والقصور؛ نتيجة الهبات التي مُنحت لهم من طرف السلطة و الرعية، ولعلّ هذه المكانة قد جلبت لهم حقد الرعية التي وصفتهم بالخبث والخديعة والمكر، ناهيك عن كتاب الأندلس الذين كان لهم كراهيةٌ ضدّ البلاط المرباطي، ومنهم بن أبي الخصال الذي فجّر غضبه ضدّ السلطة بتحالفه ضدهم ودعمه للثوار، فكان قلمه سليطاً عليهم خاصّة زمن علي بن يوسف المرباطي (ت537هـ/1142م).¹²

4. شخصية بن أبي الخصال:

1.4 حياته ونشأته:

يتصل نسب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال ذو الوزارتين، بمسعود بن طيب بن فرج بن خُلصة الغافقي الأندلسي، وقيل: أنّ خُلصة هو جدّه المكّي أبا الخصال، وبذلك فقد اتّصل لقب أبيه وجدّه على ما ذكره صاحب المعجم¹³، ويذكر ابن حزم أنّ الغافقيين قد تجمهروا بالجوف شمال قرطبة¹⁴، ومنهم بن أبي الخصال الذي ينتمي إلى قبيلة غافق¹⁵ من أسرة فرغلط¹⁶ من جهة شقورة¹⁷ التابعة لكورة جيان¹⁸.

ولد أبو عبد الله بن أبي الخصال سنة 465هـ/1072م¹⁹، حيث تردد على طلب العلم والمعرفة واستبحر في الأدب واللغات بمسقط رأسه²⁰، كان لأبي الخصال شقيقان، أحدهما عبد الله بن مسعود ابن أبي الخصال المكّي بأبي مروان بن أبي الخصال (ت539هـ/1144م)، والذي كتب لعلي بن يوسف بن تاشفين (ت537هـ/1142م)، رفقة أخيه أبو عبد الله، ولكّنه عزل بسبب رسالته المشهورة التي استهجن فيها الدولة اللّمتونية²¹، وأخوه الثاني أحمد بن مسعود بن أبي الخصال المكّي أبو جعفر الشقوري الفرغلاطي، والذي سكن قرطبة رفقة أخويه أبي عبد الله وأبا مروان، حيث كان من أهل الفقه وتولّى خطّة الأحكام وارتسم بها²²، كما كان لأبي عبد الله ابنٌ نابه هو عبد الله بن محمد بن مسعود وكنيته أبو مروان، والذي قتل سنة 530هـ/1135م²³.

انتهل بن أبي الخصال علومه الأولى بقريته، التي تلقى فيها العديد من العلوم، ثمّ تردّد على عددٍ من المدن الأندلسية المجاورة طلباً للإستزادة وبخاصّة الحاضرة قرطبة²⁴، لذا فإنّ ما بلغه بن أبي الخصال من حُظوة علمية لدى العامة والخاصّة؛ مرّدها إلى تبحره في عديد العلوم والمعارف وانهاله من منابع المعرفة المختلفة، التي راجت أيام الدولة المرباطية بالمغرب والأندلس، ولعلّ شهادات أهل عصره أصدّق حديثاً على ثقافته الغزيرة، حيث وصفه ابن بشكوال بقوله: "...كان مُتفَنّاً في العلوم مُستبحراً في الآداب واللّغات... وكان بليغاً عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسّير والأشعار..."²⁵.

والظّاهر أنّ هذه المكانة التي تسلق غمارها دون وساطةٍ نابعة عن طبع، طُبِع عليه، ومن ذلك ما ذكره ابن بسام قوله: "...فقد تميّز بنفسه وتحيّز من جنسه، والذي ألحقه بالمجد وأوقفه بمكان النّجد، ذكاءً طُبِع عليه ونجمٌ في قُربة النّباهة غربه ونبغُه..."²⁶، كما جمع في سرّيته عدّة صفات أخرى فهو "...آخر الكتاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب..."²⁷.

ومن هنا فقد كان لأبي الخصال ثقافة واسعة استمدّها من القرآن والسنة ومعرفه بالتاريخ والأدب واللغة والسياسة، وبذلك فإنّ فقدانه قد كان له أثرٌ جليٌّ في زعزعة مسار الثقافة مغرباً وأندلساً، فكيف وهذا ابن الأتار قد تحسّر على فقدانه قائلاً: "وأما البلاغة فالإليه انتهت، وعليه قصرت، وبموته فُقدت..."²⁸.

خلف ابن أبي الخصال ثروة علمية قيّمة تأليفاً وتصنيفاً، نظرًا لما أفاضت به قريحته في هذا المجال، حيث أشار ابن بشكوال إلى كثرة تواليفه قائلاً: "...له تأليفٌ حسانٌ، ظهر فيها نُبله واستبان بها فهمه..."²⁹، والحق أنّ براعة بن

أبي الخصال قد برزت بشكل واضح في المجال الأدبي وخاصة الرسائل الديوانية وفي هذا السياق يشير صاحب المعجب بقوله: "ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بين أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه"³⁰، وبذلك فقد تنوعت تواليه ما بين الأدب والدين والرسائل والقصائد والمناقب.³¹

2.3 نشاطه السياسي وعنايته بالرسائل الديوانية:

كان أول اتصال لكاتب الأندلس بالخدمة السلطانية، أيام مصاحبته لمحمد بن الحاج (ت508هـ/1114م) والي قرطبة زمن علي بن تاشفين (ت537هـ/1142م)، حيث كان ألصق وزرائه وكتابه، وقد اختص بولده أبي يحيى بكر بن أبي عبد الله، حتى سَمَّه بذي الوزارتين، وتشير بعض الروايات أن بن الحاج كان حامل الذكر عاطل الفكر، مقارنة بكتابه بن أبي الخصال.³³

والظاهر أن هذه الصحبة قد دفعت بن أبي الخصال إلى تورطه في فتنة قرطبة سنة 500هـ/1106م، حيث وقف إلى جانب ابن الحاج، مما أدى إلى تراجع مكانته، وهذا ما أشار له صاحب القلائد قوله: "ولم يزل عاثرا معه ومُستقلا... إلى أن تورطوا في تلك الفتنة... فطمعوا أن يخالوا من أمير المسلمين ملكا معصوما"³⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن بن أبي الخصال قد أظهر بارعة وحكمة وبلاغة في الرد على مراسلات علي بن يوسف (ت537هـ/1142م)، إلى أن ورد لهم كتاب راعهم، واستدعي بن أبي الخصال للمراجعة فأبان عن الغرض، فحمل ابن الحاج استحسان ما كتبه ولقبه بذي الوزارتين، فخرجت عليه لقباً وأضحى بها مشهوراً، وصار مُرتسماً في العلية ومُتصفاً بتلك الحلية.³⁵

ورغم فشل ثورة بن الحاج بقرطبة، إلا أن بن أبي الخصال زاد تعلقاً به، حيث عفا علي بن يوسف (ت537هـ/1142م) عن بن الحاج لما قدمه من أعمال جلييلة المقدار للدولة المرابطية، فأرسله إلى فاس ولزمه كاتبنا وطائفة ممن كان معه³⁶، انتقل بن أبي الخصال إلى الأندلس ونزل بسرقسطة³⁷ أم الثغر الشرقي رفقة بن الحاج، حيث أشار صاحب المعجم بذلك قوله: "...ثم إنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أم الثغر الشرقي حين حلها ذاباً عن أرجائها، ومُجاهداً لأعدائها حلول البر النقي..."³⁸.

ويبدو أن بن أبي الخصال لم ينعم برخاء العيش، فسرعان ما أصابه أمرٌ جليلٌ بوفاة صاحبه، مما جعله متحسراً على فراقه، وجعله يبتعد عن الكتابة الديوانية ومخالطة الحياة السياسية، وهذا ما يؤكد عمق الصلات بينهما حيث لزم داره خائفاً متحسراً³⁹، ويضيف المراكشي أن بن أبي الخصال قد أثر العودة للكتابة السلطانية بعدما استدعاه الأمير المرابطي علي بن يوسف (ت537هـ/1142م) للخدمة ببلاطه⁴⁰، وفي هذا السياق فقد حظي كاتب الأندلس بمكانةٍ لديه، حيث كان أنبه كتابه وأكبرهم مكانةً بشهادة صاحب المعجب الذي يقول في حقّه: "...وحق له ذلك إذ هو آخر الكتاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب"⁴¹.

وبتتبع النصوص فإن علاقته بعلي بن يوسف (ت537هـ/1142م) قد تدهورت مرة ثانية، ومن ذلك ما كان لأخيه أبا مروان، الذي كانت له رسالة شديدة اللهجة، ناقدة لأحوال المرابطين وسياساتهم، وهي رسالة طلب كتابتها الأمير المرابطي لجنده في بلنسية يوتخهم على التواكل والتخاذل ضد ابن رذمير الذي قتل من الجند العرب مقتلة عظيمة، مما دفع علياً لعزله وتأييب أخيه أبو عبد الله بن أبي الخصال قوله: "...كُنّا في شك من بغض أبي مروان للمرابطين والآن صحّ عندنا..."⁴²، ويضيف المراكشي أن بن أبي الخصال أبو عبد الله قد أنف ممّا قيل لأخيه، فطلب الإستعفاء فأعفاء، وقفل راجعاً لقرطبة بعدما مات أخوه بمراكش، وأقام أبو عبد الله بقرطبة حتى استشهاده بها أيام الفتنة.⁴³

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن تاريخ وفاة بن أبي الخصال، صادف يوم الأحد 12 ذي الحجة 540هـ/1145م أيام الهرج الذي أصاب قرطبة⁴⁴، بيد أنها تختلف في ذكر ملابسات استشهاده، حيث يشير صاحب المعجم على أنه قتل غنوةً بداره حيث كان واقفاً، من طرف المصامدة ودفن بمقبرة ابن عباس⁴⁵، ويضيف ابن الأبرار أن

شيخه أبو الحسن علي بن محمد بن الحريق (ت 622هـ/1225م)⁴⁶ قد شهد قتله من طرف أحد المصامدة المستى تيقنوا حتى أنه عرف بقاتل بن أبي الخصال، لذا كان شديد الإفتخار بها، إلا أنه أخذ جزاؤه⁴⁷، أما المراكشي فيذكر أنه استشهد بداره بقرطبة الكائنة على المرابطين دون أن يُحدّد تاريخ ذلك⁴⁸.

وفي نفس السياق، يُضيف ابن الخطيب روايتين في هذا، ذلك أنه توفي أيام الهرج بقرطبة بعدما أُلقي مقتولا أمام داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه بعد نهب داره، واستيصال حاله وذهاب ماله⁴⁹، وفي رواية ثانية أنه قتل بدرب الفرعوني قرب رجة أباّن بداخل مدينة قرطبة، حيث قتله المصامدة رجال أهل دولة اللثام لحسن ملبسه ولم يعرفوه⁵⁰.

5. دور أبو عبد الله بن أبي الخصال في التوسّط لفئات المجتمع المرابطي:

لا شك أنّ الرسائل الديوانية من أهم الوثائق الرسمية التي تحمل في طياتها العديد من الإشارات المتنوعة ذلك أنّ هذا النوع من الرسائل يمكن أن يميّط اللثام عن كثير من الظواهر الاجتماعية التي انتشرت بالمجتمع المرابطي، والتي يمكننا من خلالها أن نعطي لها تفسيراً أو مرجعيةً لأسبابها، وتطوراتها والتنبؤ بنتائجها إن امكن. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ عصر بن أبي الخصال قد كان غنياً بالعديد منها، ونخصّ بالذكر ظاهرة الوساطة في العصر المرابطي، التي عرفت رواجاً وإقبالاً من العامة والخاصة.

وقبل الإستطرداد في ملامسة هذه الظاهرة، وجب التنويه بالظروف المحيطة بها، ذلك ما كانت عليه الدولة اللّمتونية من تدهور لأحوالها، وكثرة المترصّين بها والمنشقين عنها، وكان ذلك عقب تولي أمراء ضعاف أسندوا ولاية الأمور لنسائهم وتغافلوا عن الرعية واشتطوا في جمع الأموال وجبايتها، إلا أنّ ذلك لا يمنع من وجود فترات عرفت فيها الدولة نوعاً من الرّخاء والتطور بفضل أمراء أقوياء⁵¹.

والحق أنّ إقبال فئات المجتمع المرابطي بمختلف طبقاتها على اتّخاذ الوساطة سبيلاً لتحقيق طموحاتها ورغباتها، قد فرضه الواقع المعاش، ومن ذلك ما كانت عليه عدوة الأندلس من بعدٍ عن مركز السلطة، وانعدام الثقة بين الحاكم والرعية، ومازاد الأمر سوءاً اشتطاط دولة الفقهاء وولّاتها في جمع الأموال، ممّا ولّد نوعاً من التذمر والنفور، ولعلّ رسائل الوساطة قد كشفت لنا نوعاً من مشاعر الخانقين عليها⁵².

ومما يركي هذا المقصد ذلك الحشد الكبير من رسائل الوساطة والتزكية التي أرسلها ابن أبي الخصال إلى ولاية الأمور، يظهر فيها تكافله الاجتماعي وصلاته الواسعة بأهل المغرب والأندلس، كما أنّ نزعتة وحبّه للخير دفعه إلى إصلاح مجتمعه وربط الرعية وأحوالها بالسلطة الحاكمة.

الملاحظ أنّ رسائل بن أبي الخصال لا تختلف كثيراً عن الرسائل الديوانية التي اتّبعَت قاعدة موحّدة في عمليات التأليف من الناحية الشكلية والفنية الأدبية، حيث نجده يستهل رسالته بمقدّمة بها البسملة والإستفتاح مع تحديد المرسل والمرسل إليه، ثمّ ينتقل لعرض موضوع الرسالة الذي يدعمه بالدلائل والقرائن لإقناع السلطان بما يتوسّط به، ليختتمها بخاتمة يترجى فيها قبول طلبه⁵³.

على ضوء ما تقدّم يمكن اعتبار بن أبي الخصال وسيطاً اجتماعياً، بين القاعدة الشّعبية المتمثلة في العوام من الفئات المحرومة، وبين السلطة الحاكمة في أعلى قمة هرم الدولة، خاصّة وأنّه عاصر نهاية المرابطين وبداية إرهابات قيام الدولة التّومرتية، لذلك فقد تنوعت مظاهر التواصل في رسائله، بإختلاف الفئات الاجتماعية التي توسّط لها، والتي يمكن أن نقسّمها إلى فئاتٍ حسب طبقات المجتمع المرابطي:

1.5 الطبقة الحاكمة:

حظيت هذه الفئة من المجتمع المرابطي بإهتمامٍ واضحٍ من طرف بن أبي الخصال، الذي توسّط للسلطة الحاكمة لقضاء حوائجها المستعصية عليها، لذا كانت العلاقات الواسعة لأبي الخصال وقدرته على الإقناع البلاغي، قد دفعت الوزراء والكتّاب إلى اتّخاذه كوسيطٍ اجتماعيٍّ، لقضاء مصالحهم العديدة، حيث نجده يتوسّط لهم

لدى السلطان، بحكم تشابه الوظيفة ومرتبته إذا قورن بأمثاله، ومن ذلك رسالة تزكية في وزير نعتته بالكاتب بتقريبه والعناية به، حيث أشار له بقوله: "... الوزير الكاتب مُجمل ذكرك وجزل شرك... ولو صدقته كُفُودُه وجزيتُه بوافي عهده لتزحزحتُ له عن ذروته ونجده... وجعلته إلى ذكره سبباً واستطراداً..."، ثم يضيف في مدحه قائلاً: "... وكيف؟ وهذا الفاضل يدُلُّ بفضلِه، ويُدلي ببُبل، وينتظم انتظام الدُّرة في سلكه ويسير تحت لوائه ويتحصل في ملكه..."، ثم ختم رسالته قائلاً: "... وبالي إلى المراجعة الخطيرة منصرف... وأثرت إقرار الودّ وتمكينه اغتلفت حجياً باعتلاقك قميناً..."⁵⁴.

توسّط بن أبي الخصال إلى فئة اجتماعية بارزة في عصره، وهي طبقة الوزراء والكاتب، هونابغ من تكافله الاجتماعي مع جميع الفئات، لذا فلا ريب في أن يقضي مصالحها ويرعى حممها، خاصةً وأنها فئة من نفس الوظيفة كما تدل على علاقاته الواسعة داخل البلاط المرباطي، وقدرته البلاغية التي فاقت أقرانه من الكتاب، ولعلّ قضاء حوائجهم هو سندٌ له في الأيام المقبلة.

وله رسالة أخرى في تزكية الوزير الكاتب أبو محمد بن جزي، الذي يرفع من شأنه إلى شخصٍ لم يذكر اسمه من أهل الفضل والمكانة، ويسأله الإسعاف فيما قصد إليه، والموضوع المتوقع يتعلّق بخطوبة، حيث نوّه إلى الكاتب الوزير بقوله: "... الوزير الكاتب الجليل والخطير الحسيب المثل أبو محمد بن جُزي وافد غُلاك ومفتبس سنالك..."، ثم أشار إلى مقصده قوله: "... شخص نحوك بعد استشارة أنعمها واستخارة رواها وقدمها وثقة بجلالتك مهدها ووطأها..."، وفي نهاية رسالته أشار إلى موضوع الخطبة قائلاً: "... والحمد لله الذي جعل من الماء نسباً ووصل بين الأكفاء حسباً وسبب إلى الائتام والانتظام سبباً..."⁵⁵.

المستشف من هذه الرسالة هو إظهار كاتب الأندلس لتكافُل اجتماعي واضح، مع الوزراء ذوي المهنة المشتركة، وتزكيته للعالم الفقيه هو اعترافٌ صادقٌ بعلمه رغم رجوع الأمر إلى الحاكم، كما أشار إلى قدسية رباط الزواج وضرورة الإلتزام برأي الشرع فيه، وهذا راجعٌ لحرصه على سلامة الفتوى، خاصةً إذا تعلق الأمر بالمشكلات الأسرية. ناهيك أنّ رسالته تدل على اطلاعه الواسع على مستجدات الأمور من النوازل، وحالة مجتمعه التي عرفت تطوراً في مجال الدين والشرع.

ولم تقف وساطة بن أبي الخصال عند الوزراء والكتاب، بل شملت القضاة أيضاً، ومنها رسالةٌ يتوسّط فيها إلى أحد القضاة موضوعها، ضم شخصٍ في دائرته للعمل عنده ويخبره بموافقة هذا الشخص من له الأمر في مثل هذا الحال على ذلك، حيث أشار إلى هذا الشخص بقوله: "... وفلانٌ قد وعدني بالإجمال في أمره والتوفية لبره والرغبة في أن يُسند إلى قمتك ويُعتد في جملتك، ويأوي إلى حماك..."⁵⁶.

من خلال هذه الرسالة يبدو أنّ بن أبي الخصال أراد بها قضاء حوائج العامة وهي العمل بالقضاء، ممّا يؤكّد علاقاته الواسعة بدواوين الدولة خاصةً ديوان القضاء الذي يكتسي أهميةً بالغةً، وما نستسيغه من كلامه أنّه قد ألزم القاضي بتطبيق التوصيات التي حملها إليه من هرم السلطة، ولعلّ توسّط هذا الرجل بأبي الخصال راجعٌ لا محالة إلى حساسية الوظيفة وصعوبة نبيلها.

وتتواصل رسائل بن أبي الخصال إلى التوسّط لفئة الجيش لدى السلطة، ومنها الرسالة التي بعثها لرجل ذو منصب رفيع، في حقّ رجل من الجيش وصفه بالشدة والبأس، وأنّه محاربٌ قديمٌ، حيث أشار إلى طلبه قائلاً: "... وهو من قوم يمتُّون بحرمة ويدلُّون بسالف انقطاع وخدمة وأحب التشرف بديوانه والمثول بإيوانه..."، ثم يمدح هذا الرجل قائلاً: "... ولأبي فلان... نفسٌ حرةٌ ومواقفٌ للأعداء مُره..."⁵⁷.

ما يستشف من هذه الرسالة هو التضامن الذي أبداه بن أبي الخصال مع هذا الرجل من الجيش، وتكافله مع جُند الدولة المرباط على تخومها، والظاهر أنّ أبي الخصال من الذين يبدون اهتماماً بالجهاد وحماية الثغور، لذا

نجدته يتوسط له بالخدمة في الجيش، وقد أبدى رغبة في قضاء حاجته، كما هي دليل على علاقاته الواسعة حتى مع قادة الجيش.

وله رسالة أخرى يتوسط فيه لفارس مجاهد كي يُعطي له فرس من الخيل الموقوفة من أهل الخير، حيث أشار إلى الفارس واصفاً إياه بالشجاعة قوله: "...وهو من كبار الفرسان وذوي البسالة..."، ثم قدّم طلبه قوله: "...وهو- أعزك الله - ممن يجب حملُهُ على فرسٍ ظاهرٍ ليتوصل به إلى نكاية العدو ويوردهُ موردهُ من الغارات يشنها عليهم والبلايا يُزجها إليهم..."⁵⁸.

يظهر من خلال هذه الرسالة أنّ أبي الخصال قد أبدى تعاطفاً مع الفارس، وأظهر ارتباطه بالجهاد ومواجهة العدو، لذا اهتم بالجيش ومعدّاته خاصّة فيما تعلّق بالفرسان، ولعلّ هذه الإشارة قد تدل على تهليل تنظيم الجيش، ممّا دفع صاحب القُرس لمراسلة بن أبي الخصال كوسيطٍ لقضاء مآربه دون الإستعانة بأصحاب مهنته من الجيش.

في نفس الوقت حظيت فئة العلماء والفقهاء بالفتاة من أبي الخصال الذي توسّط لها لدى السلطة، نظراً لنباهته وفطنته التي فاقت أهل عصره، وهذا ما جعل العديد من أطراف المجتمع المرباطي تقترب إليه وساطة وتزلفاً إلى السلطان لقضاء مآربه الدنيوية، كما أنّ ارتباطه الشديد بهم واحترامه وتقديره لمكانتهم قد دفعته إلى مراسلة ذوي الشأن بخصوصهم، حيث نجد له رسالة في تزكية فقيه وهو أبو عبد الله بن جابر، لذا أشار إلى علاقته به قائلاً: "...الوزير النّبيه والحاج الفقيه أبو عبد الله بن جابر، مُعظّمك وصديقي وصفيّ وجاري فإنّه أحسن النّيابة..."، ثمّ عزج بمدحه قوله: "...ثمّ عقّب حجّه المبرور بزيارة القبر المعمور... وقد كانت له بمصر إقامة اتّصلت أيامها، فلاحث له آثارها وأعلامها، وعنده من كلّ نادرة مُستفادة..."، ويضيف في مدحه قوله: "...وقد علمت... ماله وسلفه.. من تحرك ونباهة وأثرة ووجاهة... يشهد لديها الصغير والكبير، ولا يدفعه عنها العير والنفير..."⁵⁹.

قد أبدى كاتبنا ابن أبي الخصال روحاً علميةً من خلال تكافله مع أهل العلم والمشورة، وهو دليل على اعترافه لأهل العلم بعلمهم، لذا نجد في عديد المرات يشيد بما له من علم ومعرفة، ودليل على علاقاته الواسعة بكلّ أصناف الطبقات الإجتماعية، وكأنّه مصلحٌ اجتماعيٌّ في زمن تدهورت فيه الدولة اللّمتونية واقتربت من نهايتها، وقد أظهر بن أبي الخصال عنايةً واسعةً بالفقيه، لذا فقد أردف رسالته هذه برسالة شفوية أخرى تأكيداً على قضاء مصالح الفقيه واحترامه له.

2.5 الطبقة العامّة:

البارز أنّ بن أبي الخصال قد اهتم بالفئات الدّنيا من المجتمع المرباطي، نظراً لما تعانيه من ويلات الظلم والإضطهاد من طرف السلطة الحاكمة ومحبي الثروة وجمع المال، لذا كانت تحت طائلة التعسف وفرض الضرائب، بإعتبارها مصدراً مهمّاً للجباية المالية التي وجّهت لخدمة المصالح الذاتية للحكام وأصحاب الإقطاعات والملّك الكبار.

ومن أهمّ الفئات الدّنيا التي توسّط لها كاتبنا فئة الفلاحين الصغار، حيث يقوم بالتوسّط لفلاح برسالة إلى شخصيّة مرموقة لم يذكر اسمها، لرجل اكترى أرضاً في ذلك العام وكان الموسم غير طيّب، والظاهر أنّ هذا الفلاح أراد إبراء ذمّته من الكراء تفضلاً ومراعاة حال الجذب، ونقص الثمرات حيث يقول في حقّه: "...وفلانٌ جاري واملّه المترامي على فضله، تكلف في قصدي شقاً واستوجب إلى حقوقيه القديمة عندي حقّاً..."، ثمّ يضيف شارحاً حاله قوله: "...وشرح قضيته التي أشخصته والهموم تنفخه والسّموم تُلحفه وتلفحه..."، وقد أضاف إلى طلب الفلاح قوله: "...ولا بلاغ له اليوم إلا بشفاعه منه كريمة تُدرّكه، وعناية تتلافى رفقهُ وتُمسكه..."، ثمّ ختم الرسالة إلى تطلّعه بالتوسّط لحاله قائلاً: "...وعندي من التطلّع إلى تيسرهِ للإجمال وتوفّرهِ على التهمم والاهتبال ما هو شغلُ الخاطر ونصبُ البال وله الطّول الأعْمُ في وجلٍ عني يرفعه وأملٍ عندي يشفعه..."⁶⁰.

يُستشف من هذه الرسالة ذلك التكافل الاجتماعي الذي أظهره بن أبي الخصال، واهتمامه الزائد بطبقة قد يكون ذكرها منعدماً بالمصادر التاريخية، حيث قام كاتبنا بنقل وضع اجتماعي نابع عن عدم قدرة الفلاح على قضاء حوائجه وردّ ماله الضائع من عملية الكراء، وهو دليل على أنّ بن أبي الخصال كان مطلعاً بأحوال الرعية خاصّة أيام القحط والجذب ونقص الثمرات، وصورة على انهماك السلطة الحاكمة في أمور أخرى دون الرعية.

ومن هنا يكون بن أبي الخصال قد نقل صورة الرعية ومعاناتها إلى الطبقة الحاكمة، من خلال عرض بعض مظاهر الظلم والاضطهاد، إمّا من طرف الولاة أو أمراء الولايات، وهذا ما يفسّر لجوء الفلاح إلى التوسّط برسالة من بن أبي الخصال كونه من عليّة القوم ومقرّب من السلطة.

وتتعدى وساطة بن أبي الخصال الفلاحين إلى أهل الصنّاع من الطواحين، ومن ذلك رسالته إلى رؤساء لإحدى الطواحين لرجل أراد أن يكون وكيلاً بها، حيث أشار إلى طلبه قائلاً: "...نعم، حامل هذه الرقعة -جبره الله- له أطفال لا يجد لهم ذواقاً قد مدوا إليه أعناقاً وأحدافاً... ورغبتي... أن يكون للفار أكيلاً في إحدى الأرحاء وكيلاً..."، ثمّ يضيف إلى تحقيق مطلبه قوله: "... ويأتي الرزق من بابه فإن رأيت أن تُبرم قضيته، وتنفذ وصيته... تُفتح له أبواب الثواب ويرتقي في الأسباب..."⁶¹.

يُظهر بن أبي الخصال من خلال رسالته تكافلاً اجتماعياً واضحاً مع بعض الأشخاص الذي يسعون إلى المناصب تكسباً في الرزق وإعانة أسرهم، ممّا يدل على احتكاكه المتواصل بالطبقة المحرومة من الفقراء وأهل العوز، كما يبدو من رسالته ذلك الحسّ الاجتماعي المرفه وتقربه من العوام دون رياء، إضافة إلى إشارة إلى أهمية الطواحين كأداة مهمة في الحفاظ على لواحق المخزن الدقيق، وأهميتها في توفير الغذاء للرعية، ناهيك عن انتشار البطالة بالمجتمع المرباطي نتيجة أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية فرضها الواقع المعاش بالدولة.

كما لم نجد في رسائله الرسمية إلا إشارةً وحيدةً لإحدى الرسائل التي بعثها إلى شخص مجهول يتولّى الجباية اشتطّ في جمع الضرائب من شخص لا يذكره، حيث يقول عنه: "...وقد علمت أنّ الزيادة على فلان إنّما كانت ضراً وحمة تُورد ناراً وترحل جانبها بخزية وتترك عاراً..."، وقد حذّر بن أبي الخصال من هذا الفعل بقوله: "...فمن الزيادة على علم كما يجلب نقصاً وقد يعود تناهي النفاق كساداً وبخساً..."⁶².

وممّا يستدعي الإنتباه، هذه الإشارة التي نوّه لها في جور بعض الولاة في جمع الضرائب وزيادتها على فوق العادة، ممّا ألّب عليه الرعية وحاولت التقرب من السلطان عن طريق بن أبي الخصال للإبلاغ عنها، والظاهر أنّ كاتب الأندلس قد أظهر تعاوناً وتكافلاً في هذا، ودعوة صريحة إلى التخلي عنها حفاظاً على المجتمع المرباطي،

كما تفيدنا هذه الرسالة في الكشف عن ضعف السياسة الجبائية للدولة المرباطية وعدم تحكّمها في فرض الضرائب على الرعية؛ ممّا ولّد سخطاً من الرعية دفعها بالوشاية لأبي الخصال للإستفسار عنها.

وتزيد وتيرة التكافل الاجتماعي لدى بن أبي الخصال خاصّة أيام الجوائح التي تصيب الرعية، نظراً لما كانت تعانيه الرعية من إهمال من طرف السلطة أو من بعض أمراءها، لذا فقد كان لكاتب الأندلس سهمٌ وافرُ الحظ في التدخل لحلّ هذه المشاكل، ومن نماذج ذلك رسالة بعثها إلى شخصية لم يحدّد صفتها، لغرض إسعاف صديق له من جيرانه، بعد حادثة أصابته في ماله أو نقصت من مؤنّته، حيث استهل حديثه بذكر جاره قائلاً: "...ويتأدى من فلان جاري... وبيني وبينه من الأذمة الوكيدة والصُّحبة الحميدة والمودة القديمة التليدة، ما يقتضي مساهمته في أحواله..."، ثمّ عرّج بذكر الجائحة التي أصابته وأفقرته وأضرّت بماله في قوله: "...وغيرُ خافٍ عنك ما نالهُ في مُدة العمل من الجوائح المُجحفّة والأعوام المُخلفّة والنوائب المُتلفّة..."، ثمّ ختم رسالته بدعوة لإسعاف حاله قوله: "...وقد أنزلت هذه النازلة... لتضع عني إصرها وتقلّدي فيه اليد الجميلة وشكرها..."⁶³.

يتّضح لنا من هذه الرسالة بروز النزعة الإنسانية لأبي الخصال وتعاطفه مع الرعية أيام الجوائح التي أصابت الدولة اللّمتونية، والتي نعتقد من خلال رسائله أنّ السلطة لم يكن لها اهتمامٌ بما تخلفه، خاصّة على

الصعيد الاجتماعي وحتى النفس، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود أمراء كان لهم سهم وافر في خدمة الرعية زمن الجوائح والكوارث المختلفة.

ومهما يكن من أمر فإن بن أبي الخصال قد أظهر علاقاته الطيبة مع جيرانه، والتي بدت واضحة من خلال تقربه للسلطة الحاكمة لقضاء حاجته، وإشارته إلى المعاناة التي تكبدتها الرعية خاصة ظاهرة الفقر والعوز التي بدت واضحة من خلال مناجاته لإسعاف جاره الذي أصابه الهم والغم جزائها.

علاوة على هذا فقد أضاف بن أبي الخصال رسالة أخرى بتوفير الرعاية لرجل أصيب في ماله، وفيها تنويه بعلاقته الطيبة بين الكاتب والمرسل إليه، حيث يصف حاله: "...في أمر الرجل المصاب بماله - جبره الله - استنفذت له وسعي وبلغت فيه جهدي ولو أنت قدرتي على جميع ما أمل لما عاد إلا ظافراً..."، ويشير إلى آماله في حصوله على قوته قوله: "... وأنا بعد مُعتمِلٌ فيما يهواه... متطلع إلى وطر من أوطاره يتسبب، وحق من حقوقه يترتب..."⁶⁴.

إن هذه الالتفاتة الوجيهة من أبي الخصال دليل على تكافله الاجتماعي، وعلاقاته الوطيدة مع أصدقائه من ذوي الشأن، لذا نجده يصصر على توفير الرعاية لهذا الرجل، ووصل به المقام في هذا إلى التخفيف حتى على وجيبة عن أحد يعرفه برسالة وساطة، والتي صرح بها كثرة هذه الظاهرة محل الحديث، حيث نوه لها قائلاً: "...الشفاعات تتشعب... والرغبة إن تيسرت في تخفيف حظّه من هذه الوجيبة والكلفة الشاملة القريبة..."⁶⁵.

ومن الأهمية بمكان، أن تُورد أول إشارة لكثرة الشفاعات على حدّ قوله، فلا نعلم إن كان قد سئم منها لكثرتها؟، أو أنه تعرض للانتقاد من السلطة نظراً لإلحاحه على تأديتها؟، أو أنه أراد بها تكبراً نظراً لمنصبه وعلاقاته الاجتماعية؟ ولعلّ إقدام بن أبي الخصال على هذا التصريح، هو نابغ عن تدهور الوضع الاجتماعي بالدولة المرابطية، وعدم قدرتها على تلبية مطالب الرعية، فأخذ على عاتقه الوساطة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم نظراً لمجانبته السلطان وقدرته على الإتصال بدواوين الدولة.

ونظراً لتعدد مطالب الحياة اليومية وما تعانيه الرعية من تهميش من طرف السلطة، فقد كان لابن أبي الخصال دورٌ كبيرٌ في قضاء المصالح الشخصية والدينية، وهذا ما توضّحه رسائل الوساطة والتزكية، ومن أمثلة ذلك تلك الرسالة التي بعثها ابن أبي الخصال إلى دار صديق علي الشأن، أراد أن يتوسّط لرجل يحمل رسالة توصية من شخصية أخرى، فوجده نائماً، ممّا دفعه إلى اختصار الكلام والإشارة إلى الواقعة دون مبالغة، حيث يقول: "...لتنفذ ما يقتضيه جميل رأيك فيه من البر والتنويه... فانك ترهن بذلك شكري وشكره وتخلّد في الرقعة ببلاغتك الرفيعة ذكره..."⁶⁶.

يبدو من هذه الرسالة أنّ بن أبي الخصال أرد أن يقضي حاجة الرجل عنده، متبعاً أسلوباً مختصراً بليغاً قوياً رطب المعنى، وإن كان لم يذكر صاحب الرسالة أو مُتلقّيها، ولكنّه عبّر عن حالة الرجل المتأزّمة متّخذاً أسلوب الوساطة لقضاءها.

وفي رسالة أخرى خرج نطاقها من المغرب إلى الأندلس، لقضاء حاجة رجل أراد الوصال مع شخص آخر بمدينة سرقسطة، حيث لا يذكر اسمه قائلاً: "...أنّ ذلك الرجل السرقسطي قد وصل وكنت مُنشغل البال بغيبته مُشفقاً من طول احتباسه حذراً من خيبته..."⁶⁷.

ويبدو أنّ لابن أبي الخصال علاقات واسعة بالبلاد الأندلسية، حيث كان أمله ربط الوصال بين الرجلين، وهي صفة إنسانية ارتبطت به، ودليل على اهتمامه بربط أواصر الأخوة والعلاقات الطيبة بين العدوتين. كما توسّط لرجل وتشفع له لعدم نقله من منصبه إلى مكان آخر قوله: "...ولعل الشفاعة الكريمة تُنشطه من عقاله وتحط من أثقاله وتُغفّيه مما حاوله من انتقاله..."⁶⁸.

وفي رسالة مهمة لإنجاح عقد زواج لم يتم، بعث إلى المرسل وعيداً بتنفيذها قوله: "...كتبْتُ... عمّا تعلمُ وعمّا يجبُ ويلزمُ..."، ثم أشار إلى ضرورة تطبيق نصيحته بالتطبيق قوله: "...يُبيّنيك لائح سُمّت التوفيق قابلاً نصيحة

الصديق قائما بأعباء الحقوق...، كما أشار بعلمه بالقضية قوله: "...وقد علمت... ما فشا عندنا... من إيجاب الصبر بينك وبين فلان...، ثم ختم رسالته بالتدخل بالأمر قائلاً: "...فرايت أن أعزز وأغبط وأحكم عند هذا الحال وأربط..."⁶⁹. الملاحظ من هذه الرسالة تلك العلاقات الوطيدة التي ربطها بن أبي الخصال مع عامة الرعية واطلاعه الواسع على أعبائها المختلفة، لئلا فتدخله لحل عقد الزواج مردّه لدراية بعلم الحديث والفقه والسنة ومحاولة لإصلاح ذات البين وتبيان الحكم السليم في مجال الشرع، كما أنّ هذه الرسالة قد تظهر بعض الإختلالات الشرعية والجدل القائم أيام الدولة المراتبية، حتى الوصل الأمر إلى بن أبي الخصال أحد أنبه كتّاب السلطة، فكان يكفي الرجوع إلى أحد العلماء دون وساطة؟! ولعل ذلك راجع لتعسف الكاتب في إبرام عقد الزواج، لحزازة بينه وبين الشخص الآخر؟.

وبلغ الأمر من رسائل الوساطة التزكية بأشخاص لدى ولّاء الأمور والشخصيات المهمة، حيث يشير إلى هذه الظاهرة في رسالته التي بعثها إلى أحد الأعيان في تزكية صديق، وهي رسالة معززة برسالة أخرى كتب بها كاتب آخر يتوسّط للصديق نفسه.

استهل رسالته بمدح صاحب الطلب قوله: "...ولما لقيت فلاناً... لقيت المجد وجددنا ذلك العهد، ونظّمنا الشمل، ووصلنا الجبل...، ثم يقوم بمواساة هذا الشخص قوله: "...وحدثت إلى الغاية القصوى وحثت أشعرتني غربته ارتماضاً وأومضت لي إلى حنينه الذي يكتمه ايماضاً..." ثم ختم رسالته بتوسط له قائلاً: "...فلا تنس... من بذكرها عني... وقد خاطبك فتلاً يخلص ما حضضت ويعرض من هذا الأمر ما عرضت..."⁷⁰.

والظاهر من خلال هذه الرسالة أنّ بن أبي الخصال قد أضاف رسالة أخرى على الرسالة الأولى كتوصية في نفس الشخص، وهذا راجع إلى بلوغ أمره لدى السلطة، وقدرته على التوسط والتزكية له، كما أنّ هذه الرسالة هي تأكيد لعلاقاته الواسطة ونفوذه لدى الأمير المراتبي، ودليل على تكافله الاجتماعي في قضاء مصالح الرعية من العوام والخواص.

وله رسالة أخرى في تزكية رجل عند ذي جاه لا يذكره، حيث يثير إلى فضائل الشخص ومدحه كي يتقرب إلى السلطان لقضاء حاجته، وهي صورة من شيمه وتكافله الواسع في من يرى فيهم الصلاح والفلاح للدولة المراتبية حيث يصفه قائلاً: "...وألفيت عند أبي فلان اعترافاً بفضائله وانقطاعاً إلى أدمته ووسائله..." ويضيف من فضائله تزكية له: "...وقد تقدم تنبيهي على الصفي الوليّ الوزير أبي فلان... وأنا أستحفضه مجده وعلاه..."⁷¹.

وبذلك فإنّ هذا الكم من رسائل الوساطة والتزكية هو دليل على قدرة الرجل على حل مشاكل الرعية التي استعصت عليها الأمور، حيث نقل انشغالاتها للسلطة الحاكمة بفضل علاقاته الواسعة ونفوذه في البلاط المراتبي وقدرته البلاغية، وهذا الأمر هو ما جعله مُصلحاً اجتماعياً في زمن كانت فيه الدولة المراتبية تتكبّد عناء المشاكل الداخلية والخارجية التي تُنبئ بسقوط هرم الدولة.

6. خاتمة:

عُصارة القول، أنّ انتشار ظاهرة الوساطة ولو بشكل نسبي في المجتمع المراتبي، مردّها إلى تردي الأوضاع المختلفة التي فرضتها تغيير موازين القوى بالمنطقة، لذا فهي تعبير صريح على اتّساع الهوة بين الحاكم والرعية ومدى التذمر الذي حملته من سياسة الدولة، كما أنّ إقبال ابن أبي الخصال على التوسط بالرعاية للعديد من الفئات الاجتماعية راجع إلى خصوصيات الواقع المعاش، وارتباطه الوثيق واطلاعه الدائم على الرعية وأحوالها، إضافة لملكته البلاغية وقدرته على الإقناع، جعل الناس يتهافون على وساطته لإصلاح ما طالته أيادي الحكام تحقيقاً لمصالحهم ومآربهم المختلفة، ولعل وجود هذه الظاهرة بالمجتمع المراتبي في مراحل متفاوتة يدل على أصالتها

وتجذرها في التاريخ الاجتماعي، لذا كانت الوساطة إلا عينة من عدد كبير من الظواهر الاجتماعية التي مسّت المجتمع المراتبي والتي تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة.

7. الهوامش:

- 01- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص: 4833.
- 02- أمال سالم عطية، السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق 13-14م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 1436-1437هـ/2015-2016م، ص: 17-27.
- 03- خالد محمد عبد الله وأحمد صالح محمد، دور العلماء في الحياة الاجتماعية في عهد المؤرخين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، المجلد الثالث، العدد 10، جامعة تكريت، 1432هـ/2001م، ص: 223؛ أمال سالم عطية، المرجع السابق، ص: 109.
- 04- ابراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1418هـ/1997م، ص: 119-120.
- 05- ابن عبدون، محمد بن أحمد التيجيبي (ت في النصف الأول من القرن 6هـ/12م)، رسالة ابن عبدون، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، المجلد الثاني، 1375هـ/1955م، ص: 16.
- 06- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ط 1، مكتبة الخانجي مصر، 1401هـ/1980م، ص: 37-40.
- 07- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص: 121؛ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 329؛ عيسى بن الذيب، المغرب والأندلس في عهد المرابطين دراسة اجتماعية واقتصادية 480-540هـ/1056-1145م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص: 99 وما بعدها.
- 08- ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م)، مقدمة ابن خلدون، ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ/2001م، ج 1، ص: 308.
- 09- بن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد (ت 569هـ/1173م)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملج أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ/1983م، القسم الأول، ص: 166، 169.
- 10- ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي (ت 542هـ/1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، القسم الثاني، المجلد الأول، ص: 240.
- 11- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص: 138؛ عيسى بن الذيب، المرجع السابق، ص: 105.
- 12- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص: 140-141.
- 13- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلسني (ت 594هـ/1120م)، المعجم في أصحاب القاضي الصدي، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 1، دار الكتاب المصري/دار الكتاب اللبناني، القاهرة/بيروت، 1410هـ/1989م، ص: 152 (ت رقم 125)؛ ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الله (ت 578هـ/1183م)، كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت 708هـ/1308م)، تحقيق أبو العلا شريف العدوي، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1429هـ/2008م، المجلد 2، ص: 224 (ترجمة رقم 1231)؛ ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/1286م)، المغرب في حلى المغرب، حققه وعلّق عليه شوقي ضيف، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1416هـ/1995م، الجزء 2، ص: 66.
- 14- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م، المجلد 01، ص: 294؛ ابن حزم، محمد بن علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت 456هـ/1064م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1368هـ/1948م، ص: 309.
- 15- غافق: يتصل نسيم بغفاق بن شاهد بن علقمة بن علك بن السديث بن عدنان، وتوجد ديارهم بالجوف شمال قرطبة بالأندلس. ينظر: ابن حزم، المصدر السابق، ص: 309.
- 16- قرطبة: بضم أوله وسكون ثانيه وغين معجمة مضمومة ولا مكسورة وياء ساكنة وطاء مهملة، قرية من نواحي شقورة بالأندلس. ينظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي (ت 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، المجلد الرابع، ص: 254.
- 17- شقورة: بفتح أوله وبعد الواو الساكنة راء، مدينة بالأندلس شمال مرسية. ينظر: نفس المصدر، المجلد الثالث، ص: 355.

- 18- جَبَّان: بالفتح ثم التشديد وآخره نون، مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة... وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة. ينظر: نفسه، المجلد الثاني، ص: 195؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 02، ص: 224؛ ابن أبي الخصال، أبو عبد الله الغافقي الأندلسي (ت 540هـ/ 1145م)، رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمد رضوان الدايدة، ط: 1، دار الفكر، دمشق/ سورية، 1409هـ/ 1988م، ص: 09 (مقدمة المحقق).
- 19- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت 776هـ/ 1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، مراجعة وتقديم وتعليق بوزيان دراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، الجزء 03، ص: 72؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 02، ص: 225.
- 20- ابن الأثير، المصدر السابق، ص: 152؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 02، ص: 224.
- 21- المراكشي، أبو محمد بن علي عبد الواحد (ت 647هـ/ 1249م)، المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، ط: 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1427هـ/ 2006م، ص: 134؛ ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 68.
- 22- ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن القضاعي البلنسي (ت 594هـ/ 1120م)، التكملة لكتاب الصلة، اعتنى بطبعه وعلق على حواشيه ألفرد بل ومحمد بن أبي شنب، المطبعة الشرقية، الجزائر، 1337هـ/ 1919م، ص: 44-45 (ترجمة رقم 99).
- 23- سعد عيسى فوزي، أبو عبد الله بن أبي الخصال رئيس كتاب الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/ مصر، 1410هـ/ 1989م، ص: 42.
- 24- ومن شيوخه وأساتذته نذكر: أبو الحسن بن مالك اليعمرى قاضي أبده، وأبو الحسين السراج، أبو محمد بن عتاب، أبو بحر الأسدي، أبو بكر بن أبي الدوس، أبو تميم العزبن بقنه، أبو بكر بن غالب ابن عطية، أبو الحسين بن الباذش، أبو بكر بن سابق الصقلي، ومن أهل ألمرية أبو علي الصدي الذي أخذ عنه بعض كتب الحديث، أبو الحسن بن اللوان في القراءات، أبو علي الغساني، ابن أخت غانم، أبو عبد الله المازري وغيرهم كثير. ينظر: ابن الأثير، المعجم، ص: 152.
- 25- ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 02، ص: 225؛ ابن الأثير، المعجم، ص: 153.
- 26- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلد 01، ص: 784.
- 27- المراكشي، المصدر السابق، ص: 132.
- 28- ابن الأثير، المعجم، ص: 152.
- 29- ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 02، ص: 225.
- 30- المراكشي، المصدر السابق، ص: 134.
- 31- ومن مؤلفاته نذكر: كتاب سراج الأدب، كتاب ظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكرامة، رسالة لمحبة البارقي، كتاب المنهج في معارضة المبهج، ديوان رسائله، وعدة رسائل إخوانية وديوانية مختلفة. ينظر: المقرئ، المصدر السابق، ج: 03، ص: 184؛ ابن خير، أبو بكر بن محمد بن خير الأموي (ت 575هـ/ 1179م)، فهرسة ابن خير الإشيلي، ط: 1، دار الكتب اللبنانية، بيروت/ لبنان، 1419هـ/ 1998م، ص: 345 (رقم 1015-1016)، ص: 374 (رقم 1177)، ص: 375-376 (رقم 1182-1183)؛ المراكشي، المصدر السابق، ص: 134؛ ابن الأثير، المعجم، ص: 153.
- 32- هو أبو يحيى أبو بكر بن أبي عبد الله محمد بن الحاج المشهر بابن الحاج، كان أبوه أبو عبد الله من أسرة بني تاشفين ومن كبار قادة المرابطين بالأندلس والمغرب، وكان مقربا لأبي الخصال، وإلى أبيه عبد الله، توفي بمعركة البورت سنة 508هـ/ 1114م، ضد ابن رزمير (ألفونسو الأول ملك أراغون). ينظر: ابن عذارى المراكشي، أبو عبد الله محمد (ت بعد سنة 712هـ/ 1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ط: 4، دار الثقافة، بيروت/ لبنان، 1393هـ/ 1973م، الجزء الرابع، ص: 54.
- 33- ابن بسام، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلد الأول، ص: 784؛ ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد (ت 529هـ/ 1134م)، قلاند العقيان ومحاسن أهل الزمان، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، ط: 1، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، 1409هـ/ 1989م، الجزء الأول، ص: 519.
- 34- ابن الأثير، المعجم، ص: 153؛ ابن بسام، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلد الأول، ص: 784؛ ابن خاقان، قلاند، ج: 01، ص: 519.
- 35- ابن بسام، المصدر السابق، القسم الثالث، المجلد الأول، ص: 784-785، ابن خاقان، قلاند، ج: 01، ص: 520.
- 36- ابن الأثير، المعجم، ص: 153-154.
- 37- سرقسطة: أم الثغر الشرقي، بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطلية، غنية بالفواكه والمعادن، مبنية على نهر كبير منبعث من جبال القلاع. ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج: 3، ص: 212-213.
- 38- ابن الأثير، المعجم، ص: 153.

- 39- نفسه، نفس الصفحة.
- 40- المراكشي، المصدر السابق، ص:132.
- 41- نفسه، نفس الصفحة.
- 42- نفسه، ص:135؛ وللإطلاع على الرسالة كاملة ينظر: حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة انتقال من المرابطين إلى الموحدين (520-540هـ/1126-1145م)، مجلة المعهد المصري، المجلد الأول، العدد الثالث، 1375هـ/1955م، ص:116-118.
- 43- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.
- 44- ابن الأثير، المعجم، ص:154؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص:74.
- 45- ابن الأثير، المعجم، ص:155.
- 46- هو علي بن محمد بن أحمد بن سلمه بن حريق أبو الحسن المخزومي البلسني، شاعر متبحر بالأدب واللغة، توفي سنة 622هـ/1225م، مدح ملوك الأندلس وأخذ صلاتهم، وتصرف بأعمال ديوان. ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء أحمد الزناؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار الإحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان، 1420هـ/2000م، الجزء 21، ص:276-277 (ترجمة رقم 294).
- 47- ابن الأثير، المعجم، ص:155.
- 48- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.
- 49- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص:73-74.
- 50- نفسه، ج3، ص:76.
- 51- المراكشي، المصدر السابق، ص:135.
- 52- سعد عيسى فوزي، المرجع السابق، ص:86.
- 53- الربيعي بن سلامة، الأدب المغربي والأندلسي بين التأسيس والتأصيل والتجديد، ط1، دار بهاء الدين، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص:166، 168، 170-171، 178.
- 54- ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص:330-333 (الرسالة رقم:80)
- 55- نفسه، ص:353-354 (الرسالة رقم:85)
- 56- نفسه، ص:138 (الرسالة رقم:51)
- 57- نفسه، ص:287 (الرسالة رقم:73)
- 58- نفسه، ص:114-115 (الرسالة رقم:34)
- 59- نفسه، ص:347-351 (الرسالة رقم:83)
- 60- نفسه، ص:76-77 (الرسالة رقم:15)
- 61- نفسه، ص:120-121 (الرسالة رقم:39)
- 62- نفسه، ص:104-105 (الرسالة رقم:27)
- 63- نفسه، ص:78-79 (الرسالة رقم:16)
- 64- نفسه، ص:87-88 (الرسالة رقم:20)
- 65- نفسه، ص:129 (الرسالة رقم:45)
- 66- نفسه، ص:60 (الرسالة رقم:08)
- 67- نفسه، ص:119-120 (الرسالة رقم:37)
- 68- نفسه، ص:591-593 (الرسالة رقم:134)
- 69- نفسه، ص:598-599 (الرسالة رقم:138)
- 70- نفسه، ص:129-130 (الرسالة رقم:46)
- 71- نفسه، ص:595-597 (الرسالة رقم:136).